حَتَّى إِذَا تَجَلَّتِ الْقُوبَا (١)

(قَالَ أَبُو بَكْرٍ: تَجَلَّبَ . وَالتَّجَلُّبُ طَلَبُ الْكَلَإِ)، وَالْحَلَى (مَقْصُورٌ) وَهُوَ النَّبْتُ الرَّقِيقُ كُلُّهُ مَا دَامَ رَطْبًا، فَإِذَا يَبِسَ فَهُوَ حَشِيشٌ. وَلَا يُقَالُ حَشِيشٌ إِلَّا لِلْيَابِسِ، وَمَا كَانَ مِنْ وَرَقٍ لَيْسَ بِعَرِيضٍ إِنَّمَا هُوَ خُوصَةٌ فَهُوَ هَدَبٌ وَهُوَ وَرَقُ الْأَرْطَى (٢) وَالْأَثْلِ (٣) وَالْغَضَا (٤) وَالطَّرْفَاءِ (٥) وَالْأَثَابِ (٦) وَالْآءِ (٧) الْوَاحِدَةُ آءَةٌ. قَالَ زُهَيْرٌ (وافر):

لَهُ بِالسِّيِّ تَنْشُومٌ وَآءُ (٨) (مستأنف البقية)

كِتَابُ
تَارِيخِ بَيْرُوتَ

لصالح بن يحيى (تابع لما سبق)

وفي ايام ناصر الدين (٩) في اوائل محرم سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٦م) كان فتوح

---

١) يذكر اتانًا تطلب المرعى. تجلّاهُ نبتُهُ ٢) مرَّ ذكر الارطى

٣) الأثل شجرٌ كالطرفاء الّا انهُ اعظم منها واجود عودًا تُتَّخذ منهُ الأقداح الصُّغر الجياد والقصاع والجفان ورقهُ هَدَبٌ طوال دقاق ولاشوك لهُ وثمرتهُ حمراء: (L., Tamarix articulata; Lc., Tamarin)

٤) مرَّ ذكر الغضا

٥) قال ابو حنيفة: الطرفاء من الغضاه وهُدبهُ مثل هدب الأثل وليس لهُ خشب وانما يخرج عصيًا سَمْحةً في السماء وقد تتخذ منها الابل اذا لم تجد حمضًا غيره (L., B..Tamarix; L., Tamarix articulata; Lc., Tamarix Mustexn)

٦) الاثاب شجر ينبت في بطون الاودية بالبادية وهو وارف الظلّ

٧) لم نجد للآء وصفًا سوى انهُ من الشجر وقيل انَّ الآء ثمر السَّرْح

٨) يصف زعير ظليمًا باتمًا في ارضٍ وجا نباتًا التنُّوم والآء

٩) جاء في الحاشية ما نصُّهُ: وفي سنة اثنتي عشرة (كذا) وسبعمائة تُرع عن ناصر الدين الحسين واقاربهِ درك ما بين انطلياس وبيروت واستقرَّ دركهم ميناء الحصن وميناء الرميلة. وقد وجدتُ محضرًا كُتب جذه الكائنة من مضمونهِ ان شواني الفرنج الجارية في بحر المالح حضروا الى ميناء الدامور ليلة الاربعاء خامس جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعمائة قرأوا ثانًا لاحت لهم من جهة القرية فتبعوها وكان بالقرية شمس الدين عبدالله واخوه فخر الدين عبد الحميد ولدا

كسروان(١ فقصد الجبل ومعهُ أقاربهُ وجمعهُ. فقُتِل منهم الامير نجم الدين محمَّد واخوهُ شهاب الدين احمد ولدا الامير جمال الدين حتي في نهار الخميس خامس شهر محرَّم المذكور بقرية نيبّه من كسروان وقُتل معهم من اهل الغرب ثلاثة وعشرون نفرًا. وكانت وقعة نيبه المذكورة وقعةً رديئة لانَّ اهل كسروان تجمَّعوا وقاتلوا بها وكان هناك مغارة اجتمعوا فيها بعد القتال. وذُكِر ان عدد اهل كسروان بلغ اربعة آلاف راجل فهلك منهم بالسيف خلقٌ كثير والذين سلموا منهم تفرَّقوا في جزّين وبلادها وفي البقاع وبلاد بعلبك. ومنحت الدولة لبعضهم الامان. وحصل لناصر الدين انكسارٌ من الدولة لانَّ البعض بلّغوا السلطان عنهُ انَّهُ تعرَّض الى من أُعطي الامان من الكسروانيين في مرورهم على بلد بيروت. وكان الذين نقلوا هذا الخبر الى الدولة نقلوهُ كذبًا وافتراء. وكُتبت في ذلك محاضر رأيتُ بعضَها

وهذه اسماء النوَّاب الذين اجتمعوا على كسروان: الجمالي اقوش الافرم نائب الشام والسيفي اسنَدمر نائب طرابلس والشمسي سنقرجاه المنصوري نائب صفد (٢. وذُكِر انَّ النوَّاب (47ᵃ) المذكورين جلسوا على بساط في يوم من ايَّام حرب كسروان ومع كلّ من نائبي طرابلس وصفد خنجر. وكان ناصر الدين واقفًا عندهم مشدود الوسط بمنطقة وخنجر فاستلّ النائبان خنجريهما على طريق اللعب والمجون وجعلا يمزحان مع نائب الشام اقوش ويضحكان منهُ لكونهِ بدون خنجر. فهمَّ ناصر الدين ان يعطي لنائب الشام خنجرهُ فمنعهُ من ذلك الاحترام وخشي التجرّي على مثل ذلك لكنهُ ندم بعدئذٍ على تقصيرهِ لانَّ الامر كان في محلهِ. ثمَّ رجع ناصر الدين الى المكان الذي كان نازلًا بهِ فما كاد يصل اليهِ حتى ارسل نائب الشام يطلب منهُ خنجرهُ فاعطاهُ اياهُ بعد فوات محلهِ

وفي ايَّام ناصر الدين في عيد الاضحى سنة اربع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٣) حضرت

جمال الدين ومعهم جماعة يشتغلون بالزراعة في الدامور وهم نيام مطمئنُّون الى الغزك المرتَّب على ميناء الدامور يتولاهُ بنو القدس وبنو السويزاني فاوقع الفرنج فيهم واخذوا اسرى كلّ من قدروا عليهِ ومن لم يقدروا عليهِ اجتهدوا في قتلهِ. فكان من عدد المقتولين فخر الدين عبد الحميد ومن المأسورين شمس الدين عبد الله اخوهُ. وتاريخ هذا المحضر في ثاني وعشرين جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعمائة وكتب الطاهر (؟) انَّ هذا المحضر كُتب شهادة على إهمال بني القدس وبني السويزاني لغزكهم وتثبُّطًا فيما فرَّطوا بهِ والله اعلم

١) مرَّ ذكر هذه الواقعة في الصفحة ٢٧٥ ٢) مرَّ ذكرهم سابقًا (ص ٢٧٥)

شواني للفرنج الجنويين الى بيروت قاصدين اخذ قرقون (١ لطائفة الكتيلان (٢ في ايام ولاية عزّ الدين البيسري (٣ من قبل تنكز نائب الشام. وقصد المسلمون منع الجنوية من اخذ القرقون فقاتلوهم قتالاً شديداً لكنهم لم يقووا على منعهم. وقُتل جماعة من الجند والرجال وجُرح بعض الامراء بعرامون ودخل الجنوية الميناء واخذوا الاعلام السلطانية من البرج وقُتل جماعة في البرّ وانهزم المسلمون فقاتلهم الجنوية في الازقّة. ويُذكر انّ القتال استمرّ بينهم يومين (٤. ثم طُلب امراء الغرب وتركمانُ كسروان الى دمشق فحصل لهم هناك اهانة واذيّة ما خلا ناصر الدين فانّهُ أُخرج عنهُ لانهُ كان مصادقاً لامير يقال لهُ صاروجا (٥ فارسل (47 صاروجا زوجتهُ الى حريم تنكز ليتكلّمنَ في ناصر الدين فتعلنَ. وكان لتنكز رأيٌ ارسلتهُ امهُ اليه ولقّنتهُ ما يقول فتلطّف الولد بالامر فنجحت القضيّة ولم يُسجن ناصر الدين بالقلعة الّا أيّاماً قلائل فقال (٦ :

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليسَ بضائري ... حبسي رأيُ مُهنّدٍ لا يُغمَدُ
او ما رأيتَ الليثَ يألف غيلهُ ... كبرًا وبأسُ السباع يتوقّدُ (٧
والنار في احجارها مخبوءةٌ ... لا تُصطلى إلّا تُثيرها الأزندُ
والحبس اذ لم تغشَهُ لجريمةٍ ... شنعاء نعم المنزل المتورّدُ
بيتٌ يُجدّد للكريم كرامةً ... فيزار وهو لا يزورُ ويُحمَدُ

وصاروجا كان منسوباً الى تنكز وبعد حبس تنكز بمدّةٍ قليلة أُمسك صاروجا واحتاطوا على حواصله وسجنوهُ في القلعة ثم اطلقوهُ سنة احدى واربعين وسبعمائة

١) نظنُّ انّ القرقون كالقرقور وهي السفينة الطويلة معرّب عن اليونانيّة κέρκουρος
٢) الكتيلان (Catalans) قوم من فرنج الاندلس كانوا محالفين للمسلمين
٣) لم نجد لعزّ الدين البيسري ذكرًا في غير هذا التاريخ
٤) ورد ذكر هذه الواقعة في كتاب اخبار الاعيان (ص ٢٣٥)
٥) جاء في حاشية الكتاب: « وبعد اخذ مركب الكتيلان وحركة الجنوية الى نائب الشام ناصرَ الدين واقاربهُ بان يقيموا في بيروت مدّةً طويلة فاتخذوا فيها حارة الميناء على جانب البحر وابطلوا الكتيبة التي كانوا يترلونها اوّلا كما ذكرنا ». وصاروجا هذا اصلهُ من دمشق ورُوي اسمهُ بالسين « ساروجا ». ولعلّهُ هو الذي ذكرهُ ابن اياس في بدائع الزهور (١ : ١٦٦) في تاريخ سنة ٧٣٢ هـ وقال انّهُ كان نقيب الجيوش وانّهُ صاحب الجامع الذي عند بركة الرطلي
٦) هذه الابيات قالها عليّ بن جهم الشاعر المشهور لمّا امر الخليفة المتوكّل بحبسه (راجع مجاني الادب ٣ : ١٥٣)
٧) ويروى: تصيدُ

(١٣٤٠ م). وكانت اعيبه من جملة اقطاع ساروجا. وحُكي عنهُ انهُ عرض على ناصر الدين ان ينزل عن اعيبه الى بيت مال المسلمين فيشتريها ناصر الدين ملكاً من بيت مال المسلمين وانهُ يقرضهُ في ثمنها الف دينار. فلم يوافقهُ ناصر الدين على ذلك. فقال صاروجا: انتَ قد صار لك في اعيبه عمائر كثيرة وهي لا تصلح الّا لك فاشترِها. فقال: انّ اقاربي هم املاك باعيبه فان اشتريتها يطعنون بي وما يعطوني خراج املاكهم واكون قد تكلّفتُ ثمنها بلا فائدة. ولناصر الدين مديح في صاروجا (ص 48):

اذا رُمتَ من مرّ الحوادث تفريجا ... فلُذْ بالمقرّ الاشرف النّبيل صاروجا (١
هو الصارمُ المشهورُ في قمم العدى ... وبحرُ الندى في السلم والموت والهَيجا
حمى بيضة الاسلام في يوم شَحْشَب (٢ ... فكم نهر ماء من دما المُثل ممزوجا
وكم يوم حربٍ قد جلاهُ وكم لهُ ... ايادٍ بفيض الجود كالغيث تَجْوُجا
فسلا عَدِمَتْهُ دولة ناصريّةٌ ... لها عَلَماً (٣ بالعدل والنصر منسوجا
ولا زال محروس الجناب وبابُهُ ... محطَّ رحال الحمد بالمدح مَهْجوجا

(ستأتي البقيّة)

السفر العجيب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريفو اليسوعيّ (تابع لما سبق)

الفصل الخامس

من مرسيلية الى نيويورك

فلمّا انتهى المهاجرون الى المحطّة أُدخلوا عشرةً عشرةً في مركبات الطبقة الثالثة وأُجلسوا على مقاعد من خشب. ولو كان فاضل في حالة غير حالته لاندهش من وفرة المركبات والقواطر العظيمة التي يتدفّق منها الدخان اكثر من اتون مضطرم ومسيرها بتلك السرعة الغريبة لانهُ لم يكن رأى قطُّ عجلات كهذه تباري الريح باجنحة من نار الّا ان التكبات التي اصابتهُ جعلت قلبهُ منقبضاً وغير مستعدّ لشيء من ذلك فكان من ثمّ يلتفت باحتراس ذات اليمين وذات الشمال وهو متخوّف من كل الناس وقابض بيدهِ على الدراهم القليلة التي كانت قد بقيت في جيوبه بعد أن سُلبت منهُ منطقتهُ

١) ذكر ابن سباط هذه الابيات في تاريخهِ. وهو يروي: من اثر الحوادث
٢) رواية ابن سباط: حمى جحفل الاسلام في يوم شَحْشَب ٣) في الاصل: جا علمٌ